جامعة بنغازي –كلية التّربية

مجلة كلية التربية ... العدد الخامس عشر ... يونيو 2024

وصف الشعراء لصنعة الشعر

د. فوزي إبراهيم صالح حمد

عضو هيأة التدريس بجامعة أجدابيا، بدرجة أستاذ مشارك

ورئيس قسم اللغة العربية بالأكاديمية الليبية للدراسات العليا، فرع أجدابيا

Poets describe the making of poetry

Dr.. Fawzi Ibrahim Saleh Hamad

Member of the teaching staff at Ajdabiya University. college of Literature.

the department of Arabic language. Head of the Arabic Language Department at the Libyan Academy for Postgraduate Studies. Ajdabiya branch.

ملخص البحث

يصنف البحث ضمن الدراسات النقدية، ويتناول موضوعاً نقدياً جديداً، وهو وصف الشعراء لصنعتهم، ودقائقها وكل ما يتعلق بها، بذلك جاز أن يُطلق على الشعر بأنه صنعة يمكن تعلمها وإتقانها، بعد الموهبة الفطرية، وهي في رأيي لا تكفي، لكون الموهبة تحتاج إلى صقل وتثقيف.

فنجد الشعراء قد أشاروا إلى وسائلهم لاستدعاء الشعر، أو استحضاره، ووجدناها مختلفة، بحسب طبيعة كل شاعر، وبحسب المؤثرات التي تحيط به، والبيئة، والنشأة الأدبية. كما تناول البحث وصف الصنعة ذاتها، وطرق الشعراء في نظمهم، وبما شبهوا به صنعتهم الشعرية، بل وجدناهم يمدحون شعرهم، ويعتزون بأساليبهم في نظم قصائدهم، وكل هذا يمكن الاستفادة منه في الدراسات النقدية والبلاغية، والأدبية عموماً.

الكلمات الافتتاحية: الشعر، الشعراء، الصنعة، البلاغة، الطبع.

Research Summary

The research is classified within critical studies and deals with a new critical topic, which is the poets' description of their craft, its subtleties, and everything related to it. Thus, it is permissible to call poetry a craft that can be learned and mastered after innate talent, which in my opinion is not enough because talent needs refinement and education. We find that poets have referred to their methods for summoning or evoking poetry, and we found them to be different according to the nature of each poet and according to the influences that surround him, the environment and his literary upbringing. The research also dealt with a description of the craft itself and the methods of poets in their poetic craftsmanship. Rather, we found them praising their poetry and taking pride in their methods in composing their poems and all of this. It can be used in critical, rhetorical, and literary studies in general.

Kay word: Poetry, poets, craft, eloquence.

مقدمة

إنّ للشعر عند العرب مكانة عالية، ومنزلة سامية، وله أبلغ الأثر في نفوسهم، يروونه ويحفظونه، ويحثون أبناءهم على حفظه والاحتكام إليه، وفهم معانيه، لأنّ فيها حثاً على كل مكرمة، وقديماً أنشدوا:

ولولا خِلال سنها الشعر ما درى بغاة العلا من أين تؤتى المكارم

قال ابن رشيق في مستهل كتابه العمدة: "وجدت الشعر أكبر علوم العرب، وأوفر حظوظ الأدب، وأحرى أن تُقبل شهادته، وتمتثل إرادته". (القيرواني، 1981: 16/1).

أما عن مكانة الشاعر، فهو عندهم أمير مؤمّر، يفرحون بمقدمه، ويبتهجون لنبوغه، ويحتكمون إلى شعره، ويكرمون وفادته، وقد سُئل أحد المتقدمين عن الشعراء فقال: "ما ظنك بقوم الاقتصاد محمود إلا منهم، والكذب مذموم إلا فيهم". ابن رشيق القيرواني، 1981: 24/1).

ورووا عن الخليل قوله: "الشعراء أمراء الكلام، يصرفونه أنى شاؤوا، وجاز لهم فيه ما لا يجوز لغيرهم، من إطلاق المعنى وتقييده، ومن تسهيل اللفظ وتعقيده، ومد مقصوره وقصر محدودة، والجمع بين لغاته، والتوصيف بين صلاته، واستخراج ما كلت الألسن عن نعته، والأذهان عن فهمه. يبعدون القريب، ويقربون البعيد، يحتج بهم ولا يحتج عليهم". (الزمخشري، 1992: 1/ 454).

وصف الشعراء أشعارهم، وصنعتهم، وما يكابدونه في نظم شعرهم، وعدّوه صنعة كغيره من الصناعات، وهذا ظاهر جلي عندما يصفون أشعارهم، ويجعلونها نقشاً ونحتاً وسبكاً ونظماً ونسجاً وصياغة، ويقارن النقاد بين إبداع الشاعر في صناعة الشعر، وإبداع النساج والرسام، وصانع الحلي، وضارب الدنانير.

فالشعر صناعة وثقافة وفن، أكد ذلك ابن سلام الجمحي في قوله: "وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر العلوم والصناعات". ولعل قوله تعالى في علاقة نبيه عليه الصلاة والسلام بالشعر: {وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ} [يس:69] دليل على أنّ الشعر صناعة يمكن تعلمها.

وقد ورد مصطلح (الصنعة) في عناوين المصنفات التي عُنيت بصنعة الشعر، منها:

- كتاب الصناعتين، لأبي هلال العسكري
- اللمعة في صنعة الشعر، لأبي البركات ابن الأنباري
- الممتع في صنعة الشعر، لعبد الكريم النهشلي القيرواني
- ميزان الذهب في صناعة الشعر ونقده، لأحمد الهاشمي

وتحاول هذه الدراسة الموجزة قراءة أوصاف الشعراء أنفسهم لصنعتهم، وتحليلها، ولا شك أنّ من يصف صنعته جدير بأن يُؤخذ برأيه؛ لأنه أخبرُ الناس بها، وأعلم الخلق بأسرارها وخفاياها. قال ابن رشيق في هذا المعنى: "وأهل صناعة الشعر أبصر به من العلماء بآلته من نحو وغريب ومثل وخبر وما أشبه ذلك. ولو كانوا دونهم بدرجات، وكيف إن قاربوهم أو كانوا منهم بسبب". (ابن رشيق القيرواني، 1981:1/ 117).

فنجد الشعراء قد أشاروا في أشعارهم إلى صنعتهم أو فيما روي عنهم من آثار، ووصفوا أحوالهم الغريبة عند نظم قصائدهم، كما أشاروا إلى بواعث الشعر ووسائلهم لاستدعائه، إذا ما أجبل عليهم أو امتنع عنهم، كل هذه القضايا وغيرها أحاول دراستها دراسة وصفية أولا ثم تحليله. ثانياً. وأقمتها على مبحثين: الأول: **وصف الشعراء وسائل استدعاء الشعر**. والثاني: **وصف الشعراء للشعر وصنعته.**

والله ولي التوفيق

المبحث الأول

وسائل الشعراء لاستدعاء الشعر

باعتبار أنّ الإبداع الشعري حالة انفعالية تعبّر عن معاناة الشاعر النفسية تجاه قضية ما، فإنّ ثمة وسائل تساعد الشعراء على الإبداع، وقد أشار الشعراء في أشعارهم أو فيما أُثر عنهم، عن الأوقات التي تسنح فيها نفوسهم، وتجود فيها قرائحهم بالشعر، كما أشاروا إلى وسائلهم لاستدعائه، وتختلف هذه الوسائل اختلافاً كبيراً؛ بحسب طبيعة كل شاعر، فتشحذ القرائح، وتنبه الخواطر، وتلين عريكة الكلام، وتسهل طرائق المعاني، كل شاعر بحسب طبعه وعادته. وباستقراء آراء الشعراء في ذلك اتضح أنّ وسائلهم لاستدعاء الشعر عديدة ومختلفة، منها:

الزمن:

فللزمن أثر مهم في الشاعر يقول ابن قتيبة: "وللشعر أوقاتٌ يسرع فيها أتيه، ويسمح فيها أبيه. منها أول الليل قبل تغشى الكرى، ومنها صدر النهار قبل الغداء، ومنها يوم شرب الدواء، ومنها الخلوة في الحبس والمسير". (الدينوري، بلا تاريخ:1/ 16).

ومن أشهر أوقاتهم التي ينقاد فيها الشعر (الليل)، وهذا ما أشار إليه أبو تمام في قوله:

خُذْهَا ابْنَةَ الفِكْرِ المُهَذَّبِ في الدُّجَى واللَّيلُ أسودُ رُقْعَةِ الجلبابِ

لأن الليل وقت هدوء الأصوات وسكون الحركات، واجتماع الفكر، لخلو الخاطر، وصفاء القريحة.

قالوا "كان جرير إذا أراد أن يؤبد قصيدة صنعها ليلاً، يشعل سراجه ويعتزل، وربما علا السطح وحده، فاضطجع وغطى رأسه؛ رغبة في الخلوة بنفسه، ويُحكى أنه صنع ذلك في قصيدته التي أخزى بها بني نمير". (ابن رشيق القيرواني، 1981 :1/ 207).

والليل بطبيعته الخاصة يمارس سحره على نفوس المبدعين، ويتيح للشاعر الانعزال وحيداً بعيداً عن كل ما يشوش التفكير ويكد الذهن.

فللزمن أثره في قريحة الشاعر وطبعه وسجيته، قال ابن رشيق: "وعلى كل حال فليس يفتح بحار الخواطر مثل: مباكرة العمل بالأسحار عند الهبوب من النوم؛ لكون النفس مجتمعة لم يتفرق حسها في أسباب اللهو أو المعيشة أو غير ذلك مما يعييها؛ وإذ هي مستريحة جديدة كأنما أُنشئت نشأة أخرى؛ ولأنّ السحر ألطف هواء، وأرق نسيماً، وأعدل ميزاناً بين الليل والنهار". (ابن رشيق القيرواني، 1981: 1/208).

المكان:

كذلك أشار الشعراء لأثر المكان في قرائحهم الشعرية، قيل لكثير: "يا أبا صخر كيف تصنع إذا عسر عليك قول الشعر؟ قال: أطوف في الرباع المحيلة، والرياض المعشبة، فيسهل عليّ أرصنه، ويسرع إليّ أحسنه". (الدينوري، بلا تاريخ: 1/ 14).

وقال الأصمعي في هذا المعنى: "ما استدعي شارد بمثل الماء الجاري، والشرف العالي، والمكان الخالي". (ابن رشيق القيرواني، 1981: 1/ 206).

ومن طرائف الروايات في ذلك ما رواه ابن رشيق قال: "حدثني بعض أصحابنا من أهل المهدية وقد مررنا بموضع بها يُعرف بالكدية، هو أشرفها أرضاً وهواء، قال: جئت هذا الموضع مرة فإذا عبد الكريم على سطح برج هناك قد كشف الدنيا، فقلت: أبا محمد؟ قال: نعم، قلت: ما تصنع ههنا؟ قال: ألقح خاطري، وأجلو ناظري، قلت: فهل نتج لك شيء؟ قال: ما تقر به عيني وعينك إن شاء الله تعالى، وأنشدني شعراً يدخل مسام القلوب رقة". (ابن رشيق القيرواني، 1981: 206/1).

الخلوة:

ذكر الشعراء أنّ من وسائلهم لاستدعاء الشعر الخلوة أي أن يخلو الشاعر بنفسه أو مع أحبابه فتجود قريحته بكل ما يرتضيه "وقد سُئل ذو الرمة: كيف تصنع إذا انقفل دونك الشعر؟ فقال: كيف ينقفل دوني وعندي مفتاحه؟ قيل له: وعنه سألناك ما هو؟ قال: الخلوة بذكر الأحباب". (ابن رشيق القيرواني، 1981: 1/ 206).

قال ابن رشيق: "فهذا لأنه عاشق، ولعمري إنه إذا انفتح للشعر نسيب القصيدة فقد ولج من الباب، ووضع رجله في الركاب، على أن ذا الرمة لم يكن كثير المدح والهجاء، وإنما كان واصف أطلال، ونادب أظعان، وهو الذي أخرجه من طبقة الفحول". (ابن رشيق القيرواني، 1981: 1/ 206).

اتخاذ أوضاع معينة:

للشعراء أحوال خاصة وغريبة في استدعاء الشعر كاتخاذ مواضع معينة أو حركات مضطربة، يزعمون أنها تعينهم على بغيتهم من القريض. من ذلك التقلب، روى أحد ندماء أبي تمام قال: "استأذنت عليه فإذا هو في بيت مصهرج قد غسل بالماء يتقلب يميناً وشمالاً، فقلت: لقد بلغ بك الحر مبلغاً شديداً، قال: لا، ولكن غيره، ومكث كذلك ساعة ثم قام كأنما أطلق من عقال، فقال: الآن وردت، ثم استمد وكتب شيئاً لا أعرفه، ثم قال: أتدري ما كنت فيه مذ الآن؟ قلت: لا، قال: قول أبي نواس: كالدهر فيه شراسة وليان .....

أردت معناه فشمس عليّ حتى أمكن الله منه فصنعت:

شرستَ بل لنتَ بل قانيتَ ذاك بذا فأنت لا شك فيك السهل والجبلُ"

(ابن رشيق القيرواني، 1981: 1/ 209).

ومنها ما روي عن جرير أن الفرزدق صنع شعراً "يقول فيه:

فإني أنا الموت الذي هو ذاهب بنفسك فانظر كيف أنت محاوله

وحلف بالطلاق أنّ جريراً لا يغلبه فيه، فكان جرير يتمرغ في الرمضاء ويقول: أنا أبو حرزة حتى قال:

أنا الدهر يفني الموت والدهر خالد فجئني بمثل الدهر شيئاً يطاوله"

ابن رشيق القيرواني، 1981: 1/ 209).

الشراب:

ذكر الشعراء أن ملذات الشراب من وسائلهم في استدعاء الشعر، روي عن أبي نواس وقد قيل له: " كيف عملك حين تريد أن تصنع الشعر؟ قال: أشرب حتى إذا كنت أطيب ما أكون نفساً بين الصاحي والسكران صنعت، وقد داخلني النشاط وهزتني الأريحية ". (ابن رشيق القيرواني، 1981: 1/ 209).

العشق:

قال ابن رشيق: "قال بعضهم: من أراد أن يقول شعراً فليعشق فإنه يرق، وليرو فإنه يدل، وليطمع فإنه يصنع ". (ابن رشيق القيرواني، 1981: 1/ 212).

هذه بعض وسائلهم في استدعاء الشعر وشحذ القرائح، وهي وسائل تختلف من شاعر لآخر، بحسب طبعه وشاعريته وموهبته قال ابن رشيق: "ثم إن للناس فيما بعد ضروباً مختلفة يستدعون بها الشعر، فتشحذ القرائح، وتنبه الخواطر، وتلين عريكة الكلام، وتسهل طرق المعنى، كل امرئ على تركيب طبعه، واطراد عادته. (ابن رشيق القيرواني، 1981: 205).

ما يستحق أن يقال فيه الشعر:

ومن أطرف ما أثر عن الشعراء في وسائل استدعاء الشعر، أن الشاعر تجود قريحته إذا وجد ما يستحق القول فيه، من الشجاعة أو البذل أو المواقف المحمودة عامة، قال رؤبة ابن العجاج في الحرب التي كانت بين تميم والأزد: يا بني تميم أطلقوا من لساني، أي افعلوا ما أقول فيه. وقالت بنو تميم لسلامة بن جندل، مجدنا بشعرك فقال: افعلوا حتى أقول.

وقال شاعر في استدعاء ما يكون من القوم ليقول فيه:

وقافية قيلت لكم لم أجد لها جواباً إذا لم تضربوا بالمناصلِ

فأنطق في حق بحق ولم يكن ليدحض عنكم قالة الحق باطلِ

(ابن رشيق القيرواني، 1981: 1/ 205).

المبحث الثاني

وصف الشعراء للشعر وصنعته

لا شك أنّ للشعراء مسالكهم في نظم قصائدهم وقد أشاروا إلى ذلك في معاطف شعرهم، ووصف متذوقو الشعر والمعنيون به بعض أساليب الشعراء وطرائقهم في النظم.

قال الجاحظ: "ووصفوا كلامهم في أشعارهم فجعلوها كبرود العَصب، وكالحلل والمعاطف، والديباج والوشي، وأشباه ذلك" (الجاحظ، بلا تاريخ:1/ 222).

ونقل ابن رشيق عن بعض من نظر بين أبي تمام وأبي الطيب: "إنما حبيب كالقاضي العدل، يضع اللفظة موضعها، ويعطي المعنى حقه، بعد طول النظر والبحث عن البنية، أو كالفقيه الورع يتحرى في كلامه ويتحرج خوفاً على دينه، وأبو الطيب كالملك الجبار يأخذ ما حوله قهراً وعنوة، أو كالشجاع الجريء يهجم على ما يريده ولا يبالي ما لقي ولا حيث وقع ". (ابن رشيق القيرواني، 1981: 1/ 128).

فحبيب عنده كالقاضي الحريص والدقيق في وضع اللفظ موضعه وإعطائه حقه، أو هو كالفقيه الورع الذي يحرص على أن يكون حكمه مصيباً وموافقاً لمصادر الشريعة التي يستنبط منها الأحكام، بحيث لا يقصر في استنباط الحكم الشرعي بعد جمع الأدلة والترجيح بينها، كما هو حريص على ألا يدخل في الشرع ما ليس منه.

أما المتنبي فقد شبهه بالملك الجبار الذي امتلك ناصية اللغة وانصاعت له الألفاظ، بحيث يأخذ منها ما يريد، ويدع ما يريد. وهذا من الوصف الدقيق لصنعة الشعراء ومناهجهم في نظم شعرهم.

وقال ابن رشيق: " وإنما سُمي الشاعر شاعراً؛ لأنه يشعر بما لا يشعر به غيره، فإذا لم يكن عند الشاعر توليد معنى ولا اختراعه، أو استظراف لفظ وابتداعه، أو زيادة فيما أجحف فيه غيره من المعاني، أو نقص مما أطاله سواه من الألفاظ، أو صرف معنى إلى وجه عن وجه آخر، كان اسم الشاعر عليه مجازاً لا حقيقة، ولم يكن له إلا فضل الوزن، وليس بفضل عندي مع التقصير". (ابن رشيق القيرواني، (1981: 1/ 119).

وقال الجمحي في نعت صنعة الشعر وحقيقة العلم به: "وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم، كسائر أصناف العلم والصناعات؛ منها ما تثقفه العين، ومنها ما تثقفه الأذن، ومنها ما تثقفه اليد، ومنها ما يثقفه اللسان.

من ذلك اللؤلؤ والياقوت لا تعرفه بصفة ولا وزن دون المعاينة ممن يبصره، ومن ذلك الجهبذة بالدينار والدرهم؛ لا تعرف جودتهما بلون ولا مس ولا طراز ولا وسم ولا صفة، ويعرفه الناقد عند المعاينة، فيعرف بهرجها وزائفها وستوقها ومفرغها... يعرف ذلك العلماء عند المعاينة والاستماع له بلا صفة ينتهي إليها، ولا علم يوقف عليه، وأنّ كثرة المدارسة لتعين على العلم به، فكذلك الشعر يعلمه أهل العلم به". (الجمحي، بلا تاريخ:1/ 6، 7).

كما وصفوا صعوبة عمل الشعر ومكابدة الشعراء في صنعتهم "قيل: عمل الشعر على الحاذق به أشد من نقل الصخر، ويُقال: إن الشعر كالبحر أهون ما يكون على الجاهل، أهول ما يكون على العالم، وأتعب أصحابه قلباً من عرفه حق معرفته، وأهل صناعة الشعر أبصر به من العلماء بآلته من نحو وغريب ومثل وخبر وما أشبه ذلك. ولو كانوا دونهم بدرجات وكيف إن قاربوهم أو كانوا منهم بسبب". (ابن رشيق القيرواني، 1981: 1/ 117).

ومن آرائهم حول عمل الشعر ما روي عن بعض الحذاق بهذه الصنعة قال: " قُلْ من الشعر ما يخدمك، ولا تقل منه ما تخدمه". (ابن رشيق القيرواني، 1981: 1/ 133).

يريد لا تتكلف وتجهد نفسك عند نظم شعرك، ولا تبالغ في التحري والمراجعة، لأنّ ذلك مدعاة للتكلف وغياب الماء والرونق والطبع فيما تقول. وهذا ما قصده الأصمعي بقوله: " زهير والنابغة من عبيد الشعر، يريد أنهما يتكلفان إصلاحه ويشغلان به حواسهما وخواطرهما". (ابن رشيق القيرواني، 1981: 1/ 33).

وشعراء العرب يرسلون كلامهم دون تكلف أو تصنع فالعرب "لا تنظر في أعطاف شعرها بأن تجنّس أو تطابق أو تقابل، فتترك لفظة للفظة، أو معنى لمعنى... ولكن نظرها في فصاحة الكلام وجزالته، وبسط المعنى وإبرازه". (ابن رشيق القيرواني، 1981: 1/ 206).

* * * *

ومع تلك الآراء القيمة للأدباء ونقاد الشعر والعلماء به، إلا أن للشعراء آراءهم المعتبرة حول صنعتهم؛ ومها بلغت قيمة وأهمية آراء نقاد الشعر ومتذوقيه، فلن تكون في دقة أو قيمة أصحاب الصنعة أنفسهم –أعني الشعراء. وقديماً قالوا في الأمثال: "اعط القوس باريها".

شبّه الشعراء عملهم في الغالب بنسج البرُود والحلل والديباج، أو بنظم الجواهر والعقود؛

من ذلك قول أبي الجماهر الهلالي:

لا يُشترى الحمدُ أمنيّةً ولا يشترى الحمد بالمقْصِرِ

ولكنما يشترى غالياً فمن يعط قيمته يشترِ

وممن يعتطفه على مئزر فنعم الرِّداءُ على المئزرِ

فقد شبه شعره في البيت الأخير بالرداء، والرداء فيه معنى النسج والنقش، والألوان والتصاوير.

كما جاء في قول شاعر آخر:

ولو كنتُ نسّاجاً سددت خصاصها بقولٍ كطعم الشهد بالبارد العذب

فأشار إلى أن القول نسج والشاعر نسّاج وأن الكلام يُذاق ويجد المتذوق له طعماً كطعم الشهد بالبارد العذب.

وقال آخر:

فإن أهلكْ فقد أبقيتُ بعدي قوافي تعجب المتمثلينا

لذيذاتِ المقاطع محكماتٍ لو انّ الشعر يُلبس لارتدينا

وصف قوافيه بأنها لذيذات المقاطع، وأنها محكمة النظم والصنعة، تكاد تلبس من جمالها وروعتها.

وقال أبو قردودة يرثي ابن عمار قتيل النعمان ووصف كلامه وقد كان نهاه عن منادمته:

إني نهيت ابن عمار وقلت له لا تأمنْ أحمر العينين والشعرَهْ

إن الملوك متى تنزلْ بساحتهم تطِرْ بنارك من نيرانهم شررَهْ

يا جفنة كإزاء الحوض قد هدموا ومنطقاً مثل وشي اليمنة الحبِرَهْ

ومنطقاً أي قولاً وشعراً مثل: اليمنة الحبرة. جاء في اللسان: والحبرة: ضرب من برود اليمن منمر، والجمع حبر وحبرات، برود حبرة ضرب من البرود اليمانية. يقال: برد حبير وبرد حبرة، مثل عنبة، على الوصف والإضافة، والحبير من البرود: ما كان موشياً مخططاً.

(ينظر: ابن منظور، بلا تاريخ: حبر).

وقال الشاعر في مديح أحمد بن أبي دؤاد:

وعويص من الأمور بهيم غامض الشخص مظلمٍ مستورِ

قد تسهلت ما توعر منه بلسان يزينه التحبيرُ

مثل وشي البرود هلهله النس ـج وعند الحجاج دُرّ نثيرُ

حسنُ الصمت والمقاطع إمّا أنصت القومُ والحديث يدورُ

ثم من بَعدُ لحظةٌ تورث اليـ سرَ وعِرض مهذّب موفورُ

يحكي الشاعر براعته في نظم أبياته، وكيف سَهُل عليه ما توعر على غيره، بقصيد مثل وشي البرود أي نقش الثياب وزخرفتها، وهي في الاحتجاج مبهرة أخاذة، مثل الدر الثمين. (الجاحظ، بلا تاريخ: 1/ 223).

وممن وصف شعره وافتخر بصنيعه فيه أبو حية النميري:

إنّ القصـائد قد علمن بأنني صَنَعُ اللسان بهنّ لا أتنحّلُ

وإذا ابتدأتُ عروض نسجٍ ريّضٍ جعلتْ تذلُّ لما أريد وتُسْهِلُ

حتى تطاوعني ولو يرتاضها غيري لحاول صعبةً لا تَقْبَلُ

يذكر أنّ قصائده من صنعته فهو لا ينتحل شعر غيره ويدعيه لنفسه، انظر إلى كلمة نسج، وما فيها من إشارة إلى أن الشعر ينسج كنسج الثياب، واستعارة العروض للشعر، أي الناقة التي لم تذلل، لكنها لديه ذلول ومنقادة سهلة.

ومنها قول أبي يعقوب الخُريمي في صفة شعره:

من كل غائرةٍ إذا وجهتُها طلعتْ بها الركبانُ كل نِجاد

طوراً تمثلها الملوك وتارةً بين الثُديّ تُراض والأكباد

يعني بالغائرة قصيدة يقولها في الغور، ثم يوجهها فتسير بها الركبان مصعدة في كل نجد، ويتناشدها ملوك الناس ومولوك البيان، ويتمثلون بها، ويُفتن بها أهل الغناء، فيروضنها بالتلحين، فهي تلحّن على العيدان المحتضنة بين الثدي والأكباد شغفاً بها. (ينظر: الجرجاني، 1992: 511)

وكقول البحتري:

بمنقوشة نقش الدنانير يُنتقى لها اللفظ مختاراً كما يُنتقى التبرُ

يؤكد الشاعر هنا الصلة بين النقش وصناعة الشعر، وأنّ ألفاظه تُنتقى كما يُنتقى الذهب.

وكقول عَديُّ بنُ الرِّقاع:

وقَصيدةٍ قد بِتُّ أجْمَعُ بَيْنَها حَتَّى أُقوِّمَ مَيْلَها وسِنادَها

نَظَرَ المثقِّفِ في كُعُوبِ قَناتِه حتَّى يُقيمَ ثِقافُهُ مُنْآدَها

يحكي الشاعر مكابدته في إنشاء قصيدته، فهو يصوب عيوب القافية، واستعار الثقاف وهو ما تُعدل به الرماح وتسوى، حتى يستقيم منآدها أي اعوجاجها.

وكقول بشار:

وشعرٍ كنور الروض لاءمت بينه بقولٍ إذا ما أحزنَ الشعرُ أسهلا

أي ألّفَ وأحدث تلاؤماً بين مفردات شعره، وإن كان ظاهرها صعباً ولكنها تسهل علي صناعتها. ومنها قول أبي تمام:

خُذْها مُثَقَّفَةَ القَوافي رَبُّها لسَوابِغِ النَّعْمَاءِ غَيْرُ كَنُودِ

حذّاءَ تملأ كلَّ أذْنٍ حكمةً وبلاغةً وتُدِرُّ كلَّ وريدِ

كالدُّرِّ والمَرْجانِ أُلِّفَ نظمُهُ بالشَّذْرِ في عُنقِ الفتاةِ الرُّودِ

كَشقيقةِ البُرْدِ المُنَمنَمِ وشيُهُ في أرضِ مَهْرةَ أو بلادِ تَزِيدِ

يصف الشاعر قصيدته بأنها مثقفة أي منقحة، وصاحبها معترف لك بالفضل شاكر لأنعمك عليه غير كنود أي غير جاحد للنعمة. وحذاء أي خفيفة السير في البلاد، يطرب لها كل من سمعها لما تضمنته من حكمة وبلاغة، وتقطع وريد كل من يحاول أن يصنع مثلها. وأحسن الشاعر نظمها وأتقنه كما يُنظم الدر والمرجان وشذر الذهب، ويوضع في عنق الفتاة الرود، أي الناعمة المدللة، وهذه القصيدة، كقطعة من البرود المنمنمة أي المنقوشة بدقة، من بلاد اليمن أو من بني قضاعة التي تُنسب إليهم البرود النفيسة.

وطالما أكثر أبو تمام من وصف شعره وصنعته والاعتزاز به، وحقاً هي ظاهرة في شعره تستحق أن تُفرد بالدراسة.

وله كذلك في وصف صنعة الشعر:

إليكَ أرَحنا عازِبَ الشعرِ بعدَما تمهَّلَ في رَوْضِ المعاني العجائبِ

غرائبُ لاقَتْ في فِنائكَ أنسَها مِنَ المَجْدِ فهْيَ الآنَ غيرُ غرائبِ

ولو كان يَفنى الشِّعرُ أفناهُ ما قَرَتْ حِياضُكَ منهُ في السّنين الذَّواهِبِ

ولكنّهُ صَوْبُ العقولِ إذا انْجلتْ سَحائبُ منه أُعْقِبَتْ بِسَحائبِ

(ينظر: الجرجاني، 1992: 511 .517).

وكذلك البحتري وصف صنعته مقتدياً بأستاذه أبي تمام منها:

بِمَنْقوشَةٍ نَقْشَ الدَّنانيرِ يُنْتَقى لها اللَّفظُ مُختاراً كما يُنتقَى التِّبْرُ

فهو يجود وشعره وينقشه، كما تُنقش الدنانير، ويختار ألفاظه بعناية، كما تنتقى شذور الذهب، الخالية من كل مما يشوبها أو ينقص قيمتها.

ومن شعره أيضاً في وصف صنعته:

أيذهبُ هذا الدَّهرُ لم يَرَ مَوْضِعي ولم يَدْرِ ما مقدارُ حَلّي ولا عَقْدي

ويَكْسَدُ مِثْلي وهْو تاجرُ سُؤْدَدٍ يبيعُ ثَمينـاتِ المَكارمِ والمجدِ

سَوائرُ شِعْرٍ جامـعٍ بَدَدَ العُلى تَعَلَّقْنَ مَنْ قَبلي وأَتْعَبنَ مَنْ بَعدي

يُقَدِّرُ فيهـا صـانـعٌ متعمِّلٌ لإحكامِها تقديرَ دَاودَ فـي السَّرْدِ

في البيت الأخير صرّح الشاعر بمكابدته في عمل الشعر، وأن ألفاظ الشعر ومعانيه منقادة طيعة له، كانقياد الحديد لداود في صناعة الدروع. (ينظر: الجرجاني، 1992: 516)

وجدير بالذكر أنّ أوصاف الشعراء لصنعتهم كانت من أهم مصادر البلاغيين في تقرير قواعدهم البلاغية، فهذا إمام البلاغيين عبد القاهر الجرجاني استخرج ثمانية ألفاظ توارد عليها علماء البلاغة وتكررت في مصنفاتهم قبله وهي: النظم، والترتيب، والتأليف، والتركيب، والنسج، والتحبير، والصياغة، والتصوير. أكد أنّ تفسير هذه الألفاظ واستبطان معانيها وفهم مرادهم منها هو الذي يهدي إلى معرفة الفصاحة والبلاغة. وبالتتبع والاستقراء اتضح له أنّ هذه الألفاظ مما وصف بها الشعراء الشعر.

وقد رجع الإمام عبد القاهر بهذه الكلمات إلى أصول استعمالها، وأخذ يراجع معانيها الحقيقية وما يقارب المراد بها في هذا الاستعمال المجازي، واختار من بينها كلمة النظم لأنها أجمع للمعاني، ولأنّ العلماء قبله قد أفردها بعضهم في عناوين كتبهم كنظم القرآن للجاحظ وغيره.

واستطاع بهذه المقابلات والتدقيق في المعنى الحقيقي لنظم الدر وغيره، ووضع ذلك بإزاء صناعة الكلام أن يكشف غشاوة هذه الكلمة التي فتحت له باب العلم. وهو أنّ هذه الألفاظ الثمانية التي وجد عبد القاهر كلام العلماء يدور حولها ليست مما استخرجه العلماء، وإنما هي مما وصف بها الشعراء الشعر يعني بلاغته وفصاحته، فإذا كان جذر عمل عبد القاهر فالواجب أن نقول: إنّ هذا الجذر من صناعة الشعراء، وأن الشيخ عبد القاهر وهو يشرح مراد العلماء بالفصاحة والبلاغة كان يشرح مراد الشعراء، وأن وصف البلاغة الذي هو كالرمز والإيماء، والإشارة في خفاء هو وصف الشعراء لهذه البلاغة. (ينظر: أبو موسى، بلا تاريخ: 98)، وفي ذلك دلالة ظاهرة على اعتبار وصف الشعراء لصنعة الشعر كان من أهم مصادر شيخ البلاغيين في تقرير نظريته وأصولها البلاغية.

الخاتمة

حقاً وصدقاً إنّ هذا الشعر علم العرب إذ لم يكن لهم علم، وبه تميزت الأمة العربية عن باقي الأمم في عصورها القديم، ثم رفع الله قدرها أن أنزل عليها كتابه المجيد قال تعالى: {لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [الأنبياء: 10].

والشعر من أهم مصادر علوم العرب في وقت مبكر، لذلك انصب عليه اهتمامهم، وحفظوه، وخافوا عليه من الضياع أو الإهمال، فاستظهروه في صدورهم ودونوه؛ لأنهم يعرفون قيمته، ولا زال الشعر منبعاً ثرّاً ينهلون من معينه الذي لا ينضب.

وحاولت في هذه الدراسة أن أسلط الضوء على صنعة الشعر، متخذاً من آراء الشعراء أنفسهم مصدراً؛ لأنه في اعتقادي لن تجد أفضل من صاحب الصنعة عندما يصف صنعته. كذلك هم الشعراء فقد بينوا أصول صنعتهم وما يكابدونه من أجلها، في سبيل أن تخرج القصيدة في صورة مرتضاة.

واتضح أنّ لهم وسائلهم في استدعاء الشعر، وهذه الوسائل عديدة ومختلفة من شاعر لآخر، بحسب طبيعة كل شاعر وشاعريته، وقريحته وبيئته.

كذلك أشار الشعراء إلى صنعتهم وكيفية نظمهم لقصائدهم، وشبّهوا صناعتهم بصنع البرود والثياب، أو بالنقش والزخرفة...إلخ. وافتخروا بصنيعهم في انتقاء ألفاظهم، وما تصنعه معانيهم في قلوب مستمعيهم.

كما اتضح أنّ هذا الشعر هو أحد مصادر البلاغيين في تقرير قواعدهم، بل من أهم مصادر علماء العربية على وجه العموم.

اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا مما علمنا، وزدنا علماً.

مصادر البحث ومراجعه

1. البيان والتبيين، للجاحظ، تحـ: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت. بلا تاريخ.

2. دلائل الإعجاز، لعبد القاهر الجرجاني، تحـ: محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة. ط 3، 1992م.

3. ربيع الأبرار للزمخشري، تحـ : عبد الأمير مهنا، مؤسسة الأعلمي، بيروت ، ط 1، 1992م.

4. الشعر والشعراء، لابن قتيبة، تحـ : أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة. بلا تاريخ.

5. طبقات فحول الشعراء، لابن سلام الجمحي، تحـ: محمود شاكر، دار المدني، جدة. بلا تاريخ.

6. العمدة، لابن رشيق، تحـ : محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل ، بيروت، ط 5، 1981م.

7. لسان العرب لابن منظور، تحـ: عبد الله الكبير، دار المعارف، القاهرة. بلا تاريخ.

8. مراجعات في الدرس البلاغي، لأبي موسى، مكتبة وهبة، القاهرة. بلا تاريخ.

كلية التربية